اللذة والسلوك

بحث في فلسفة اللذة وخواطر من تطورها

لإسماعيل مظهر

« شاء القدر ان يظل مذهب ارسطبس Aristippus غير معروف عند »
« العرب الا لماماً ، شأن اكثر المذاهب التي تفرعت عن دوحة سقراط العظيم »
« وشاء القدر ان يحاول ارسطوطاليس ألا يذكر اسم ارسطبس بالرغم من انه »
« ناقش في مذهبه مناقشات طويلة في كتاب الاخلاق الى نيقوماخس ، بل واخذ »
« بعض مبادئ المذهب القوريني فحورها وأدمجها في مذهبه . وشاء القدر ان »
« لا يذكر « برتلمي سنتلير » هذا المذهب في المقدمة المستفيضة التي وضعها »
« لترجمة كتاب ارسطوطاليس في الاخلاق تعيناً كما انه لم يناقش في مذهب الرواقيين »
« وهو فرع من دوحة ارسطبس وحلقة اتصال في المذاهب الاخلاقية ، أساسها »
« المذهب القوريني ... وما كان ارسطبس اول فيلسوف أساءت اليه الاقدار ، »
« وما كان اول انسان « ظلم حياً وميتاً » . . . وقد عني صديقنا اسماعيل مظهر
بتأليف كتاب ضمنه بحوثاً مبتكرة في فلسفة اللذة والالم من عهد اليونان الى الآن ،
والصفحات التالية مختارات من بعض فصوله « المحرر »

قورينة : مهد فلسفة ارسطبس

في مقاطعة « برقة » ، وعلى شاطئ طرابلس الغرب ، نزل عدد من اليونان ليستعمروا تلك البقاع التي لم يكن ينقصها من شيء لتكون رقعة من رقاع الفردوس ، إلا مهارة الصانع ، وقدرة الفنان ، وخيال الشاعر ، وإقدام الرائد . وعلى مدى الزمان شيد هؤلاء اليونان الذين نزحوا إلى تلك البقاع ، ليزودوها بما كانت تحتاج اليه من الكفايات العليا ، خمس مدائن كانت « قورينة » Cyrene أقدمها وأزهاها وأعمرها

وقد اتفق كلّ من زار مدينة « قورينة » من الأقدمين ، كما اتفق كلّ من زارها من المحدثين ، على ان تلك المدينة قد تفرّدت بموقع جغرافي تأنّقت فيه الطبيعة في إبداعه ، وأنفقت فيه كل ما كمن في تضاعيفها من مهارة التطلع والتخطيط ، ثم زوّدت ذلك المكان بجمال ، يكفي أن تقول فيه إنه جمال الطبيعة ، إذ تخطّه يد القدرة على لوحة من الجبال الشامخة ، ينبسط من تحتها بحر لجي كأنه السندس ، وتتراءى من جنوبها صحراء لا يحدها الخيال ، وكأنها التبر المنثور . ولقد حمت تلك المدينة الفريدة سلسلة من الجبال ، كانت تردّ عنها غائلة الصحراء ، برمضائها صيفاً ، وزمهريرها شتاء ، واستوت « قورينة » على قمتين ، منحدرة على سفوحهما المخضوضرة ، مطلّة من سماء ألبي مترع على ذلك الخضم الذي يعانقها فلا يضرها . فكان ذلك سبباً في اعتدال أقليمها على مدار الفصول . كما كان لها من ينابيعها المتفجّرة من خلال الجبال التي حملت عرش « قورينة » نبعاً للجمال قائماً لا يغيض ، ومنهلاً عذباً سائغاً للشاربين . فكانت في موقعها هذا ، أشبه بالدرّة العصماء ، تقذف بها اليد المترامية ، ليتلقاها البحر بالراحتين

وكان للسحر الذي ينفث به عرش « قورينة » في النفوس ، جاذبية قوية . فأمّها الملاحون من مختلف أنحاء العالم المتمدن ، يمخرون بسفنهم عباب البحر ، ليزوّدوها بما تحتاج اليه من الزاد والعتاد ، او ليتزوّدوا منها بخيرات حسان ، او ليحملوا اليها نزلاء من جزر « تيرا »[1] و « الفلوبونيز »[2] والقُفلاد[3] ، والكل مستهين بدمه في سبيل ان يرد عن المدينة هجمات قبائل البربر ، التي تكتنفها مواطنهم التاريخية ، بل ليدفعوا عن جمال الطبيعة ، وعن آثار الفن الذي تفرّد به إذ ذاك أبناء اليونان ، وعلى الاخص في الماثيات ، وتخطيط الطرق وتعبيدها . فان هذه القدرة كانت قد بلغت في « قورينة » أقصى مبالغها ، وأرفع منازلها . فان السفوح المنحدرة التي كانت تتراءى تحت « قورينة » قد ردت طرقاً معبدة مذلّلة المسالك ، تعرج ثم تمتد ، وتمتد ثم تتعرج ، وتلتوي ثم تدور من حول القمم في وضع حلزوني ، حتى تبلغ الذروة التي استوت عليها المدينة مطلّة على البحر ، وكأنها « نرجس » في أساطير اليونان الاقدمين[4]

(١) جزيرة في جنوبي ارخبيل الاسفوراد ، وتسمى الآن سنطورين Santorin وقد استمرت معروفة باسم تيرا Thera الى ما بعد الحرب الصليبية الرابعة وبعد ذلك أصبحت احدى جزر دوقية الارخبيل

(٢) الفلوبونيز Peloponnese اسم قديم لشبه جزيرة تكون جنوبي بلاد اليونان وتقع جنوبي برزخ كورنثية ، وكانت تدعى (موريا) في القرون الوسطى ، من طريق مشابهتها في الشكل لثمرة التوت ، ولشبه جزيرة المورة علاقة معروفة بتاريخ مصر الحديث (٣) جزر القفلاد Cyclades جمع من الجزر المتجاورة في ارخبيل اليونان يكون كتلة حول جزيرة صورا Syra أو سوروس Syros وعاصمتها هرموبوليس (٤) أسطورة الصدى ونرجس Echo and Narcissus في الثلوجيا اليونانية ان نرجس كان فتى سيل الجفن من آلهة الماء فأحبته الصدى فصد عنها وجفاها فشكت امرها الى الالهة هيرا زوجة أبولون ، فلم يلعن . ولذا مسخه ابولون زهرة هي زهرة النرجس فكانت على قرارة مصوبة برأسها ، لانه كان يقف على حوافي الغدران وينكس رأسه ليستجلي جماله في مائها . اما الصدى فأصابها الهزال حتى لم يبق منها الا القدرة على ترديد الاصوات

[illegible] بعد أعضبة فيه [illegible] المتحجرة ، فنحوا بالنوم [illegible] فإن لا تترك [illegible] من غير ان تمد [illegible] [illegible] فتمر عند [illegible] [illegible] إلى [illegible] الصخر [illegible] فيبط ذاهلاً [illegible] في [illegible] وقد شغلت الماء المتحجرة من [illegible] على الشمس [illegible] الأزهار التي تحجز المهارة [illegible] فيه فن الطبيعة . [illegible] في سفوح جبال أشجار السرو والصنوبر [illegible] فضوانة متباينة . كأنها اسدود الهيفاء . وفي المروج رتعت قطعان من الماشية والأغنام ، وزودت [illegible] أنواع الصوف ، وتوالدت سلالات من الخيل ، خرجت في ملاعب أثينا لا يشق لها غبار

وفي هذه البيئة نشأ الفيلسوف «ارستبس» صاحب الفلسفة المنسوبة إلى تلك المدينة المهجورة، التي تركها يد الحدثان في وحدتها الأليمة : « تبكي في الليل بكاء ، ودموعها على خديها »(١)

الضمير بين العقل والشهوة

إن تحصيل اللذة الراهنة — كما يقول أرسطبس — هي القاعدة في الحياة . على الضد مما يقول « كانت » — Kant على أن الفارق بين الاثنين أن فلسفة « كانت » تخطط الانسان خطة في حساب النفس ، يرجع فيها إلى الضمير ، والتساؤل عند مباشرة أي عمل ، « أيجوز أن يكون هذا العمل قانون الانسانية الأدبي » ؟ « وهل ينطبق هذا العمل على ما تجيز الفضائل » ؟ في حين أن فلسفة «ارسطبس» لا تتقيد إلا بالمشاعر التي تستولي على النفس في ساعة بعينها . فتحصيل اللذة الراهنة ، سواء أكانت لذاتها أم للتحرر من ألم عارض ، هي عنده قاعدة الحياة وناموس السلوك

إذا استولت اللذة (ايجاباً) أو التحرر من الألم (سلباً) على الانسان وهو يزاول أي عمل من أعمال الحياة ، فإن صوت ضميره يخفت تماماً ، حتى إذا تم الفعل ، وكان على غير ما تجيز شرائع الآداب أو العرف استيقظ الضمير ، وأخذ يحاسب النفس على ما اقترفت من استسلام للشهوة . فالضمير قوة ثانوية ، والشهوة قوة أولية . غير أن « أرسطبس » احتاط لهذا ، فقال بأن اللذة لا يجب ان تكون مرجوحة بالألم الذي يعقبها من حساب الضمير

---

(١) من مراثي ارميا في العهد القديم — « كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب . صارت كأرملة العظيمة في الامم . السيدة في البلدان صارت تحت الجزية . تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها . ليس لها من معز من كل محبيها . كل اصحابها غدروا بها ، صاروا لها أعداء » الخ — ومراثي ارميا قصيدة منثورة من امتع ما اخرجت القرائح

عبثاً يحاول الانسان أن يوقظ ضميره ، إذا استولت عليه الشهوة . وعلى قدر ما تكون قوة استيلاء الشهوة على الانسان يكون عجز إرادته عن إيقاظ ضميره ليصدّ من قوة اندفاعها أو ليحكم عليه . ففي بعض الحالات يخفت صوت الضمير بل يسكن ويمّحي ، وفي غيرها يبقى بعض الوعي ، وفي ثالثة يصارعها ، فيهزمها أو ينهزم عنها . وهذا على نسبة ما يكون تحكّم الشهوة في المشاعر

ان تحصيل اللذة او الراحة قد يكون متجهاً لما نعتبره خيراً ، والخير الاسمى ، كما يكون متجهاً لما نعتبره شراً ، والشر الادنى . والانسان في كل الحالات خاضع لشهوة اولاً . فقد استقرت وكانت بواعثها مما لا يمكن قمعه ، نشطت . واذا لم تستقر ، فشلت . ولكن الشهوة على كل حال أكثر انتصاراً ، وأقل من الضمير انحداراً . والشهوة للخير ، أقل من الشهوة للشر ، كمّاً وكيفاً ، مع تقدير اعتباري الخير والشر في مفهومنا ! كما ان للشهوة منازل ودرجات . أبان عنها أرسطبس في مذهبه كل بيان . ومما يدل على ان الشهوة اقوى من الضمير فعلاً في النفس ، ان الضمير لا يستيقظ الا نادراً وبعد وقوع الفعل في الغالب . وان استيقاظ الضمير لا يكون الا لقمع شهوة تقوم في النفس أو محاسبة على فعل أتته ، خضوعاً لشهوة ما . فالشهوة اذن اقوى من الضمير أثراً في السلوك الانساني . واذا قلت بأن كل اعمال الناس أثر من آثار الشهوة ، او بالاحرى ان اعمال الانسان شهوات ، توضع موضع التنفيذ ، كنت اقرب ما يكون من الواقع

يحتاج الضمير الى حكم العقل اولاً ليستيقظ . فان الحكم على فعل من الافعال ، بأنه مخالف او موافق لشرائع الآداب ، يحتاج الى موازنة العقل . والعقل قد يخطىء . كما ان حكمه نسبي اعتباري ، يختلف باختلاف الزمان ، وباختلاف الافراد ، وباختلاف الجمعيات . ثم ان العقل خاضع في غالب امره للتقاليد والوراثة والاوضاع التي درجت عليها كل جماعة من الجماعات . واذن فالضمير خاضع لجملة من المؤثرات . وهو عرضة لتضارب احكام العقل ، او للاخطاء التقليدية التي ورثت ولبست مع الزمان ثوب القداسة . فقد اتفقت كل الشرائع وتقاليد الجمعيات الانسانية المتحضرة ، على ان القتل جريمة . ولكنه جائز في الحروب ، فيقتل الناس بعضهم بعضاً من غير ان يتحرك الضمير بوازع يصد الانسان عن ارتكاب هذه الجريمة . والسبب في هذا أن الضمير يخضع للتقاليد والأوضاع . وهنا تستولي شهوة القتل على النفس ، غير متورعة عنه بصورة من الصور . وإذا فرضنا أن القتل في الحرب دفاع عن النفس ، كما يذهب البعض ، فليس الدفاع عن النفس الا فعل عكسي أصيل ، لا يلبث أن يتحول سراعاً الى فعل عكسي متحول ، هو حب القتل والفتك بالأرواح خضوعاً لمقررات بالمألوف . كما أن الدفاع عن النفس ، ليس كل ما في الحرب من باعث . فقتل الأسرى والضعفاء والنساء والاطفال والتخريب وقذف المدن التي تجرّدت من وسائل الدفاع بالقنابل المدمرة ، شهوة تستولي على المحاربين ، بعد أن ينقلب

حسب [illegible] من [illegible] ... [illegible] يصبح [illegible] في [illegible]
شهوة [illegible] ... وسلطة [illegible] ، وهي [illegible] التي [illegible]
[illegible] ... [illegible] الضمير في [illegible]
[illegible] ... إلى غرض [illegible] لا يمكن [illegible]
الأحوال [illegible] ... الغرض الاصلي الذي [illegible] غرض آخر ، مهما كان في الغرض الذي [illegible] من [illegible] حكم العقل ، ومهما كان في أي غرض آخر ، من اتفاق مع المنطق [illegible] . اذن فالشهوة هي القوة المحركة في أعمال الانسان ، وتحصيل اللذة الراهنة هي القاعدة التي تجري عليها سلوك الانسان وتخضع لها [1]

اذا كان اللذة والألم أصلين ضروريين في الحياة ، واذا كانت الحياة الانسانية قد قيدت أدائها بمواعث الشهوة التي تدفعنا إلى تحصيل اللذة الراهنة فهل من أمل في تنوع الخلق البشري بأن يتحرر من انفعالاته وشهواته ، إلى درجة يستوي فيها حب الخير على الشر ، وتستعلي فيه الفضيلة على الرذيلة ؟ سؤال يجب ان نفكر قليلاً قبل ان نحاول الاجابة عنه ، ولكن لا بدّ من الرجوع إلى تاريخ نشوء الانسان من الحيوانات التي هي أحط منه ، ليمكن أن نعرف إن كان الانسان سائراً في تطوره نحو الارتقاء الشعوري ، أم أن ارتقاء العقل فيه ، قد تابعه تطور في العواطف والانفعالات والشهوات ، أشملها وجعلها تخضع العقل إخضاعاً . ولكن الظاهر أن لا علاقة بين تطور العقل ، وتطور المشاعر . فكلاهما على ما يظهر يرتقي ويتطور في ناحية بعينها . ولا شك في أن المشاعر تنحي في تطورها السمت الأعلى من فضائل الأخلاق ، على ما تحتاج الطبيعة البشرية أن تكون الفضائل الخلقية ، باعتبار الزمان والمكان

ولا شبهة في ان الحيوانات العليا من الرئيسات — Primates — تحوز كل الصفات التي نراها في الانسان ، ولكن بدرجة أقل . فهي تتفق مع الانسان في أن لها غرائز وميولاً وعقولاً وانفعالات وشهوات . غير أن هذه الظاهرات فيها ، أحط منها في الانسان . والدليل على هذا ان حس الجمال في الانسان اقوى ، والمطامع أطغى ، والآمال أوسع وأشهى . واتصال الانسان بالمستقبل البعيد ، صفة تفقدها الحيوانات حتى القرود العليا ، أبناء عمومتنا الاقربين . وكثيراً ما يتطور احساس الانسان من حيث صلته بالمستقبل ، إلى صورة من الجشع الاجتماعي ، تقوي انفعالاته وتوقظ شهواته . لهذا نحكم بأن الانسان سائر نحو المادية الأدبية . وتتصدع بها تغلب الشهوات على الحس الأدبي ، والتخلص من محكمة الضمير ، على مقتضى حاجات الزمان والمكان ، وتحكم الاكصاديات الرأسمالية

(١) يقول مكدوجال « لا يغرب عنا ان العقل قد يمثل دوراً ذا بال ، ولكنه لا يلبث ان يأتي على الشكل الذي يواجهه تنوعاً جديداً ، حتى يبعث شهوة جديدة ، أو يوقظ اخرى كانت نائمة »

يدلنا على أن الانسان آخذ في سبيل التخلص من حكمة [illegible] الى [illegible] في شؤون حضارة الانسان ، كالتجارة والصناعة والزراعة ونظام الأحزاب والبعثات [illegible] والحريات على مختلف أنواعها أكثر ما تحركها الانفعالات [illegible] الشهوات [illegible] والاغراض ، وأقرب ما تكون خضوعاً لحكمة العقل . ولو أن اجتماع هذه [illegible] أجدر بالنوع البشري وأجدى . ولكننا لا نجد شيئاً من [illegible] إلا في المثاليات ، دون [illegible]

ولا نريد بهذا أن نقول ان تحصيل اللذة الراهنة هي القاعدة المثلى الخيرة بحياة الانسان الادبية ، باعتباره إنساناً ، على ما يدرك من هذا المعنى في أرفع منازله . بل نقول إنها القاعدة الضرورية . وبهذا نستطيع أن نعلل الاوامر والنواهي التي جاءت بها الاديان . فما كانت الشهوة أقوى ما يستولي على النفس ، كان لا بد لقمعها من مؤثر آخر يوازنها قوة وأثراً . فجاءت الاديان إلى الايمان توطئةً في النفس . فاذا استيقظ ، غرست فيه نواهيها وأوامرها . وهنالك يقوم العراك بين نواهي الايمان ، وبين بواعث الشهوة . ومع الأسف ، أن بواعث الشهوة لا تزال في الكفة الراجحة حتى اليوم . وبين كل شعوب الارض قاطبة

ولا يقمع الشهوة إلاّ الايمان . إذن فالنوع البشري يحتاج الى الايمان . الايمان في الدين . لأن الدين بلا إيمان لا أثر له في خارج النفس . ويحتاج إلى الايمان في بقية مرافق الحياة . في العلم والأدب والفن والفلسفة ، وفي السياسة والتجارة والصناعة والزراعة ، وعلى الأخص الايمان بقدسية الحياة الانسانية ، وحريتها ، وحقوقها ، وواجباتها . فانّنا بالايمان نستطيع ان نقمع كثيراً من الشهوات التي تفسد علينا الحياة الآن . وبقدر ما نحتاج الى الايمان نحتاج الى انتاك . لان التسليم بلا شك ، قاعدة فاسدة الاساس ، بل نستطيع ان نقول ان الايمان لن يكون تسليماً على اطلاق القول . وما ندعوه ايماناً في الغالب ، ليس الا تسليماً ، اساسه حق وغباء وتقليد ، ليس من الايمان في شيء

وقد يخيل الى الذين لم يتعمقوا في درس الفلسفة ، ان أرسطبس انما يدعو الى اتباع الفلسفة التي توحي بها فكرة تحصيل اللذة ، الراهنة ، كيفما كانت هذه اللذة ، وعلى أية صورة وقعت ، وأنهُ يرى ان هذه القاعدة هي القاعدة المثلى في السلوك الاخلاقي . ولكن الحقيقة على نقيض ذلك فان أرسطبس انما يقول بأن تحصيل اللذة الراهنة ضرورة نفسية ، نخضع لها قسراً عنا . وان الاعتراف بذلك خير من نكرانه . لاننا باعترافنا وادراكنا حقيقة كيانا ، نستطيع ان نرفه شيئاً من حدة ميولنا ، وان ننظمها ونروضها على ان تتحول الى فعل الخير على قدر المستطاع . ذلك على الضد مما نكون ، اذا اهملنا الاعتراف بها ، ومضينا نقول بأن حكم الضمير كفء للتهذيب ، من غير ان نعير الشهوة ، وأثرها في الحياة ، التفاتاً . فالفرق بين « أرسطبس وكانت » ينحصر في ان الاول يعترف بالواقع ، والثاني يدعو إلى المثل العليا